

أسواق العبودية تفتح أبوابها بإدارة جديدة



www.balagh.com

يستطيع الإنسان أن يحبس نفسه في داره لأيّام وأشهر بل وسنين دون أن يخرج من باب الدار، يشغل نفسه بما هو مولع به، وليس هذه من الأمور المستحبة، فعدد غير قليل من مشاهير العلماء مارسوا هذا الدور دون أن يشعروا بأدنى تعب أو نصب، بل يجدون في الوحدة منتهى النشوة والروعة في إنحصار ما هم عليه، ولكن لا يتحمّل مثل هؤلاء أن تفرض عليهم الإقامة فرضاً، لأنّهم كما ارتكبوا لأنفسهم البقاء في مكان واحد لفترة طويلة وبرغبتهم وإرادتهم يرفضون البقاء ولو في بيوتهم تحت الإقامة الجبرية لأنّها خلاف إرادتهم، وهذه هي قيمة الحرّية فالبقاء في دائرة محدودة مع الإرادة الذاتية هي حرّية في أعلى رُتبها والبقاء فيدائرة نفسها بالضد من الإرادة هي العبودية الأرضية في منتهى درجاتها .

في الحالتين، فإنّ الشخصية واحدة والمكان (البيت) واحد، لكن الاختلاف وقع في الإرادة بين أن تكون في مقام الفاعلية أو أن تكون تحت وطأة المفعولية، وليس الفاعل كالمفعول، فالإرادة مرفوع القامة والحركة ترفع معها رأس صاحبها، والثاني مغلوب الإرادة والحركة تنقص صاحبها على أعواد العبودية إن أصايتها بأداة النصب وأخذته بدأء الغصب.

ولا تقتصر الإرادة الفاعلة وضدّها الإرادة المسلوبة على ذات الروح العاقلة، وإنّما هي فطرة أودعها الله في مخلوقاته، وهي دين الطبيعة فيما نراه وما لا نراه من الكائنات، فكلّ ينحو باتجاه الحرّية الذاتية ورفض العبودية القسرية، وأنّها أمر فطري يدرك معناها العالم والمتعلّم والجاهل ولكن بدرجات فكلاً ما ازداد المرء علماًً أمكنه الوقوف على حقيقة الحرّية والعبودية وتلمس جزئياتها، ومن يقع تحت سنابك خيلها فهو أقدر على فهم معنى الحرّية إن امتلك الإرادة والحافز وإن كان غير متعلّم، وحيث لا يعرف المرء قيمة البصر إلا حين يفقده، ولا قيمة السمع إلا حين يفقد، فإنّ

المرء لا يعرفحقيقة الحرّية إِلَّا حينما يقع في شبّاك العبودية وتجرّي عليه أحكامها، وإذا فقدّها يعمّ ما أمكنه على الخروج من عنق زجاجتها إلى فضاء الحرّية الربح وتنفس عبر التحرير من جديد.

من هنا فإنّ الفقه الإسلامي حينما يعالج مسألة العبودية، فإِنَّه يطلق مفهوم (العتق) على مَنْ آخر نفسه من دائّتها، ولهذه الكلمة مداليلها الوضاءة يتبعها الفقيه آية ١٠ الشّيخ محمد صادق الكرباسي في كتاب «شريعة التحرير» الصادر حديثاً (٢٠١٩م) عن بيت العلم للنا بهين في بيروت في صفحة ٥٦، في ١٢٠ مسألة شرعية مع ٦٧ تعليق للفقيه آية ١٠ الشّيخ حسن رضا الغديرى الذي صدّر للكتاب بمقدّمة سبقتها مقدّمة الناشر وأعقبها تمهيد الكرباسي.

الرقبة والتحرير

للإنسان أن يسبح في فضاءات اللغة العربية، فمعاً نها عرضها كعرض سماوات المفردات واللغة، تستوعب المفردة الواحدة العشرات بل المئات من المعاني، والرقبة من جسم الإنسان واحدة من تلك المفردات التي تستوعب كلّ جزئيات الفرد، فهي وإن كانت مرتبط الرأس بالجسد، لكنّها تمثّل نهر الحياة ومركز الإرادة وملح شأن الإنسان، وبتعبير الفقيه الكرباسي في التمهيد: «جرت أدبيات العرب منذ القدم على أنّ الرقبة تعني ما فيها حياة الإنسان من جهة، وفيها كرامته من جهة أخرى، ومن هنا إذا قال الحاكم: اضرب عنق فلان، أراد قتلـه، فإذا هـا الروح كان بضرـب الرقبة».

فالرقبة وإن كانت جزءاً من بدن الإنسان ولكنّها بالكتابية والمجاز لها أن تمثّل الحياة كلّها من خير أو شرّ بل وكيونـة المرء بقدّـه وقدـيهـ، ولذلك فإنّ القرآن الكريم أشار إلى الرقبة لبيان مصير الإنسان يوم الحشر فهو من أهل الجنّة أم من أهل النار، وذلك في قوله تعالى: (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُذْقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَأْتِي قَاهُ مَنْشُوراً) (الإسراء / ١٣).

ولأنّ الرقبة دالة على الحياة، فإنّ العملية الحيوية لإخراج المرء من دائرة العبودية إلى دائرة الحرّية يطلق عليها عتق رقبة، ولهذا كما يصفـ الشّيخ الكرباسي في تعريف العتق آنـها: «الحرّية إذا قـرـئت مكسورة العين، وتعـني التحرير إذا قـرـئت مفتوحة العين، والفقـهاء لا يبتعدون عن المعنى اللغوي بل أرادـوا بالـعـتقـ الخـروـجـ منـ الرـقـ، فالـعـتقـ هوـ المـمـلـوكـ المـحـرـرـ، رـجـلاـ كـانـ أوـ اـمـرـأـ، وـقدـ اـصـطـلـحـ عـلـيـهـ الـقـرـآنـ بـالـتـحـرـيرـ».

وفي موقع آخر يعبر القرآن عن العـتقـ بـ«الفـكـ»، في قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَلَكُمْ رَقَبَةٌ) (البلد / ١٢ - ١٣)، وقد تواترت الأحاديث أنّ مَنْ اعتقـ رقبـةـ في سبيل اللهـ أـعتـقـهـ منـ نـارـ جـهـنـمـ، وأـدخلـهـ جـنـةـ الـخـلدـ، منـ هـنـاـ يـتـبـيـنـ عـظـيمـ الرـقـبـةـ وـأـنـهـ لـيـسـ فـيـ قـبـالـ الـحـيـاةـ الدـُّنـيـاـ فـحـسـبـ بـلـ الـحـيـاةـ الـآخـرـةـ وـخـلـودـهـ وـسـعـادـهـ، وـفـيـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ: «أـيـّـمـاـ مـسـلـمـ أـعـتـقـ رـجـلاـ مـسـلـمـاـ، إـنـّـاـ جـاعـلـ وـفـاءـ كـلـ عـاطـمـ مـنـ عـطـامـهـ، عـطاـمـاـ مـنـ عـطـامـ مـحـرـرـهـ مـنـ النـارـ؛ وـأـيـّـمـاـ اـمـرـأـ مـسـلـمـةـ أـعـتـقـتـ اـمـرـأـ مـسـلـمـةـ، إـنـّـاـ جـاعـلـ وـفـاءـ كـلـ عـاطـمـ مـنـ عـطـامـهـ، عـطاـمـاـ مـنـ عـطـامـهـ، عـطاـمـاـ مـنـ عـطـامـ مـحـرـرـهـ مـنـ النـارـ، وـفـيـ حـدـيـثـ نـبـوـيـ شـرـيفـ آخـرـ: «إـنـّـ مـنـ أـعـتـقـ مـؤـمـنـاـ أـعـتـقـ إـلـيـهـ الـعـزـيزـ الـجـبارـ بـكـلـ عـضـوـ مـنـهـ عـضـواـ لـهـ مـنـ النـارـ».

في الواقع أنّ تعطـيمـ عـنقـ الرـقـبـةـ وـوـضـعـهاـ فـيـ خـانـةـ الـحـيـاةـ وـمـاـ يـعـادـلـهاـ مـنـ حـيـاةـ أـخـرـويـةـ خـالـدـةـ تـكـشـفـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ عـنـ عـظـيمـ الـحرـّـيـةـ وـجـلـيلـ خـطـرـهـ وـوـقـعـهـ فـيـ حـيـاةـ الـإـنـسـانـ، وـمـنـ يـفـقـدـهـ لـطـارـيـ عـرـضـيـ أوـ مـسـتـديـمـ فـهـوـ حـيـّـ فـيـ عـدـادـ الـأـمـوـاتـ، وـنـدـرـكـ أـهـمـيـّـتـهـاـ بـلـحـاظـ ماـ فـرـضـهـ الـإـسـلـامـ عـلـىـ القـتـلـ الـخـطـأـ مـنـ وجـوبـ تـحـرـيرـ رـقـبـةـ عـبـدـ مـسـلـمـ، إـنـ وـجـدـ مـثـلـ هـذـاـ الـطـرـفـ مـثـلـمـاـ كـانـ عـلـيـهـ الـوـضـعـ فـيـ الـعـهـدـ الـأـوـلـ بـمـاـ فـرـضـتـهـ قـوـانـينـ الـحـرـبـ آـنـذـاكـ، فـالـتـحـرـيرـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: (وَمَنْ قـاتـلـ مـؤـمـنـاـ خـطـأـ فـتـحـرـيرـ رـقـبـةـ مـؤـمـنـةـ) (الذـيـسـاءـ / ٩٢)، هـوـ نـقـلةـ نـوـعـيـةـ مـنـ عـالـمـ الـعـبـودـيـةـ الـطـارـيـ إـلـىـ عـالـمـ الـحرـّـيـةـ الثـابـتـ، وـهـوـ كـمـاـ يـؤـكـدـ الـفـقـيـهـ الـكـرـبـاسـيـ: «إـنـّـ التـحـرـيرـ يـعـادـلـ إـحـيـاءـ لـلـإـنـسـانـ، إـنـّـ قـتـلـ سـخـمـ تـمـ إـحـيـاءـ سـخـمـ آـخـرـ مـكـانـهـ بـالـتـحـرـيرـ»، وـقـدـ عـبـرـ الـقـرـآنـ أـحـسـنـ تـعـبـيرـ عـنـ الـحـيـاةـ وـالـمـوـتـ فـيـ عـنقـ الرـقـبـةـ أـوـ كـسـرـهـاـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: (مـنْ قـاتـلـ زـفـنـسـاـ بـغـيـرـ زـفـنـسـاـ أـوـ فـسـادـ فـيـ الـأـرـضـ فـكـأـ زـمـنـاـ

فَتَدَلَّلَ النَّاسُ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْبَبَاهَا فَكَانَ زَمَانَ أَحْبَبَاهَا الذَّمَانَ جَمِيعاً) (المائدة/32)، فقتل النفس المُحرمة هو قتل للبشرية وإحياءً لها حياتها، وكلّما أمعنا النظر في حقيقة العتق يزيدنا إيماناً بأهميّة الحرّية وأنّها حياة الإنسانية وسعادتها في الدارين، وأنّ العبودية هي حالة طارئة على الإنسان فرضتها تداعيات الحرب وقوانينها، عمل الإسلام على التخلّص منها بطُرُق كثيرة لأنّه دين الحرّية، ولهذا كما يؤكّد الفقيه آية [الشيخ حسن رضا الغديري في تعليقه: «عُدَّ العتق والتحرير من أحبّ الأعمال في الشريعة الإسلامية الغراء ومن المستحبات المؤكّدة ليصبح المجتمع الإنساني على صعيد السعادة والرفاهية ولا يكون الاستعلاء لأحد على الآخر، بل تحكم المساوات الوجودية والحقيقة بين أبناء البشرية بشكل عام».

الإنسان أو لا

مَن يطالع كُتب الفقه والحديث القديمة، سيجد في كلّ منها باباً لبيان أحكام الحرب والجهاد والتعامل مع الأسرى والسبايا وعموم العبيد، بلحاظ أنّ مسألة العبودية إنّما تتحقّق مع وقوع الحرب وسقوط الرجال أسرى والأطفال والذّسّاء سبايا، ولكن كُتب الفقه من مدّة طويلة وبخاصّة لدى المدرسة الإمامية تكاد تخلو من مناقشة أحكام الحرب والعبيد، لإيمانهم بأنّ الحرب الابتدائية لا يجوز اندلاعها مع غيبة الإمام المهدي المنتظر (ع)، والحروب الدفاعية لها أحكامها واشتراطاتها.

أمّا لماذا يذهب الفقهاء إلى بيان أحكام الرّق ومسبياته وحيثياته والسبّيل الكفيلة للتخلّص منه باعتبار أنّ الحرّية أصلية في حياة الإنسان والعبودية دخيلة ترتفع بارتفاع المسببات؟

خلاصة الإجابة يوضحها الفقيه الكراسي في التمهيد حيث: «اختار الإسلام كأفضل الطُّرُق لاستيعاب الأسرى وما هو متربّ على اندلاع الحروب وشفّعها بمسألة التحرير بكلّ ما أُوتى من قوّة»، هذا من جهة: «ومن جهة ثانية أنّ الحكم الإسلامي لابدّ من بيانه لتتضخّص صورة الإسلام الناصع وترتفع الكثير من الشبهات التي ألقاها الأعداء وبالأخمّ الغرب الذي كان إلى قبل أقلّ من قرن يستعبد الناس من دون حرب»، فضلاً عن هذين الاعتبارين: «فإنّ الحرب الدفاعية لم تنتهِ إذ إنّها واجبة على كلّ المسلمين ولا حاجة في شرعيتها الأوّلية إلى إذن حاكم الشّعّ، بل في كيافيتها ومبرانيها وفي تفاصيلها وأساليبها تحتاج إلى إذن الحاكم بالإضافة إلى اندلاع حروب داخلية وخارجية إن شئنا أو أبینا» وغيرها من الأمور تلّجأ الفقيه إلى بيان أحكامها حتى تكون الأُمّة على بيّنة منها.

ولأنّ حرّية الإنسان هي المفصل في مسألة العبودية الناشئة عن اندلاع شرارة الحرب بين المسلمين وغير المسلمين فإنّ الأسر اعتبره الإسلام أقصر الطُّرُق لحفظ حياة الإنسان على خلاف ما كانت تفعله المجتمعات المتناحرة بينها عندما يهاجم بعضها البعض الآخر فتحرق الأخضر واليابس وتقضى على حياة الذكور، وقد وفّر الإسلام طُرُقاً متعدّدة لتخليص العبد من قيد العبودية، وأضفت عليها سمة العبادة والقدسية حتى يتجاوز المرء بصورة أثيرية محبّبة مسألة العبودية والانتقال إلى دائرة العتق والتحرير، فكان تحرير العبد صورة من صُور التكفير عن الذنب أو ما يعذر عنه بالكافرات.

ولأنّ العتق هو حرّية وتحرير فإنّ الإسلام أخذ في نظر الاعتبار قدرة المولى المُحَرّر على العيش دون أن يجلس على قارعة الطريق يستعطي الناس، أو ينحرف عن جادة المواب، ولهذا يرى الفقيه الكراسي أنّه: «يُكره عتق مَن لا يقدر على الاكتساب، إِلا إذا تكفل بقوته، وفيه مزيد من الأجر»، كما: «يُكره عتق مَن يُحتمل انحرافه»، لأنّ الأصل كرامة الإنسان وسعادته في الدارين، والقدرة على الاكتساب من عدمه هي واحدة من المصادر، وهنا يعلّق الفقيه الغديري قائلاً: «بل ويمكن أن يكون عتقه راجحاً بمحاطة جهات أُخرى غير القدرة على الاكتساب وعدمه كالالتحاق بالعائلة أو العشيرة والاستفادة من الحرّيات الأخرى الاجتماعية أو من نفس الحرّية الحاصلة له».

ولأنّ الإسلام يريد التخلّص من مخلفات الحرب، فإنّ تحقّق مجموعة من الأمور أو واحدة منها تكون كافية ليأخذ الإنسان حرّيته عبداً كان أو أمة، من تلك: «العمى، الجذام، الإقعاد، إسلام المملوك قبل المملوك، إعفاء الإرث في المملوك، التمثيل، الاستيلاد، التدبیر، والمکاتبة»، من هنا على سبيل المثال كما يضيف الكراسي: «إذا أسلم العبد في دار الحرب والتحق بدار الإسلام قبل أن يسلم مولاه فإنه

ينتعق بمجرد إسلامه»، وكذا: «إذا انحصر وارث الميت فيمن هو مملوك فإنه بمجرد موته ينعتق»، وكذا: «إذا مُذْلِّل بالملك بمعنى قطع إحدى أطرافه فإنه ينعتق بمجرد التمثيل»، كما: «إذا جُنَّـ الم المملوك انتعق»، أمّا بخصوص التدبير والاستيلاد والمكاتبة فهي توجب العتق، من هنا فإنّ: «التدبير: هو الوصية بعتقه» بعد موته المولى، أمّا: «المكاتبة: هو أن يعقد المولى بينه وبين المملوك في أن يعمل العبد ويدفع ثمنه للملك فينعتق بمقدار ما يدفعه»، وأمّا: «الاستيلاد: هو أن يكون للأمّة مولوداً حرّاً فإنهما تنعتق بمجرد موته المولى لأنّها تصبح من تركه ولدها».

ربّما يجد البعض صعوبة في فهم هذه المسائل وهضمها ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين الميلادي، ولكن الوقوف عليها يقدّم لنا صورة غير مشوّše عن بديل القتل الذي أوجده الإسلام بحسبات الحروب السابقة، وما يدركه لعلّ قوانين الحروب السابقة تعود من جديد وإن بصوّر مختلفة، بل ويعتقد الفقيه الكراسي في بيان حيثيات كتابة (شريعة التحرير): «إنّ الظروف المستقبلية غير واضحة إذ ربّما تتغير القوانين الدولية وتعود العبودية إلى الواجهة من جديد كنتائج للحروب»، وهو أمر غير مُستبعد أبداً، وما حصل في نهاية القرن العشرين في بلدان البلقان وفي أفريقيا من حروب طاحت أرواح الملايين من البشر وموت الأسرى جوعاً إشارة دامغة بأنّ عصر العبودية له قابلية العودة، وإن كان اليوم قد عاد بلباس جديد ظاهره التحرير وباطنه الاستعباد وسرقة ثروات الشعوب وإسقاط الحكومات التي لا تتماشي مع سياسات القوى العظمى.